



- Les bains de Cefalà (X^e-XIX^e siècle): pratiques thermales d'origine islamique dans la Sicile médiévale = I bagni di Cefalà (secoli X-XIX): pratiche termali d'origine islamica nella Sicilia medievale. Sous la direction de Alessandra Bagnera et Annliese Nef, Collection de l'École Française de Rome, 538 (Rome: École Française de Rome, 2018), 640p, 33 pl. hors texte.

**- حَمَّامِ شِفَالَا (ما بين القرنين X وXIXم):
مُمارسات حَامِيَّة ذات أصول إسلامية في
جزيرة صقلية خلال العصر الوسيط. تحت**

إشراف أليساندرا بَنييرا وأَنليز نيف. سلسلة منشورات المدرسة الفرنسية بروما، 538 (روما: المدرسة الفرنسية بروما، 2018)، 640 ص، و 33 لوحة.

يقترن التاريخ الإسلامي لجزيرة صقلية في الكتابات التاريخية المغاربية بالبعد العلائقي المتمثل في الروابط الدبلوماسية والتجارية التي جمعت بين الضفتين، فأمكن تحديد معالمها بفضل أوصاف الرحالة والجغرافيين العرب، والوثائق الدفينة المنشورة خلال النصف الثاني من القرن XIXم على يد المستعرب الإيطالي ميكيل أماري (Michel Amari)، والذي ترك مصنفاً مهمة باللغة الإيطالية حول الوجود الإسلامي في صقلية، من أهمها تاريخ مُسلمي صقلية في ثلاثة أجزاء (1854-1872م)، والمكتبة العربية الصقلية في ثلاثة أجزاء (1857-1887م). وقد صرّف هذا النوع من القضايا الانتباه عن التاريخ الإسلامي لصقلية نفسها باستثناء محاولات قليلة كتلك التي أقدم عليها إبراهيم القادري بوتشيش، عندما تناول تاريخ الأقلية الإسلامية في صقلية خلال المرحلة النورماندية، في كتابه الصادر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس سنة 2016، والذي استند فيه أساساً على الوثائق المكتوبة مثل النصوص الجغرافية وأدب الرحلات والنوازل الفقهية والأرشيف الوثائقي الصقلي، مقابل غياب شبه تام للدراسات الأثرية الحديثة، وهو ما يثير الاستغراب. ومن المستبعد جداً، ومن باب المنطق، أن تخلو منطقة من المناطق التي استقر فيها المسلمون من آثارهم، سواء كانت سطحية ظاهرة للعيان

أو مطمورة تحت الأتربة، لاشك أن القادر على استنطاقها ووضعها في سياقها هو عالم الآثار، كما هو الشأن بالنسبة للباحثين أليساندرا بِنِيرَا المتخصصة في علم الآثار وتاريخ الفن الإسلامي في كل من صقلية وبلدان المغرب وباكستان، وأنليز نيف المتخصصة في تاريخ إفريقية الوسيطية وإسطوغرافية المتوسط خلال العصر الوسيط، واللتين أشرفتا على فريق علمي متعدد التخصصات لدراسة واحد من الآثار الإسلامية في جزيرة صقلية، هو حَامَّة شِفَالَا.

ويتميز هذا الموقع الموجود شمال غرب صقلية على بُعد 30 كيلومترا جنوب پَالِيرْمُو، بوجود منبع ذي مياه حارة ومعدنية طبيعية استقطبت الانتباه نتيجة لخصائصها الاستشفائية، وهو ما عَجَّل بإعداده وتبنيته منذ القرن X م وصولا إلى القرن XX م، لتتحول الحَامَّة بذلك بعيداً عن وظائفها إلى مرآة شفافة لتاريخ منطقة شِفَالَا بشكل خاص وجزيرة صقلية بشكل عام. وتشكل اللقى الأثرية المكتشفة بها، سواء كانت محلية أو مستوردة كالنقود والقطع الخزفية والزجاجية والمعدنية، والتعديلات الطارئة على منشأة الاستحمام داخل المُرْكَب، شواهد ثابتة على التحولات الدينية والسياسية والاقتصادية والديموغرافية التي أُرْخَتْ بظلالها على المنطقة، تاركة بصمات واضحة عليها، وهو ما استدعى تكوين فريق علمي متكامل من المتخصصين في التاريخ وعلم الآثار والعمارة النورماندية في صقلية وعلم الكتابات العربية المنقوشة وعلم الخزف...، لدراسة كافة العناصر الأثرية كيفما كان نوعها وحجمها، وهي المهمة التي استلزمت بذل سِتِّ سنوات [2003-2008] من الجهود المضنية أثمرت نتائجها عن إصدار مُجلد ضخم من 640 صفحة، تولت أمر نشره المدرسة الفرنسية في رُوما بعد مرور عشر سنوات على انتهاء موسم الحفريات الأخير.

ومن بين القضايا التي أثارت اهتمام الفريق العلمي أثناء اشتغاله على المُرْكَب وسياقه الترابي مسألة إدراك المشهد وبنائه، وتثمين الموارد الطبيعية مثل الخشب والماء، ودور السلطة السياسية في هذا المجال ما بين القرنين X وXIII م، فضلا عن إدراك طبيعة تشييد التراب المتمفصل حول محور طريقي استراتيجي تعود أصوله إلى المرحلة الإسلامية، وفهم مدى تأقلم الأنماط المؤسساتية والمعمارية الإسلامية مع السياق الاجتماعي والسياسي والديني الجديد الذي تشكلت ملامحه منذ منتصف القرن XI م، مع الحرص على إبراز التحولات الطارئة على تلك الأنماط بعد زوال الثقافة الإسلامية

وحلول أخرى محلها. ولعل هذا ما جعل الفريق يرى في تاريخ الحامّة تاريخًا عامًا لصقلية ولمصير البعد الإسلامي فيها.

ويتكون هذا المركّب من باحة في الطرف الشرقي، وبنائتين على شكل حرف L في كل من الطرفين الشمالي والغربي، إضافة إلى رحي مائية في الشمال الشرقي يمتد الحوض المزود لها بالماء على طول الجدار الشرقي لمنشأة الاستحمام. أما هذه الأخيرة، فتعلوها كتابة عربية منقوشة على طول واجهاتها الغربية والشمالية والشرقية، وتنقسم داخليًا إلى قسمين يفصل بينهما جدار بثلاثة أقواس، يتوفر القسم الجنوبي منهما على مسبح واحد، مقابل ثلاثة مسابح في القسم الشمالي الأكبر مساحة والذي تعلوه قبة مشيدة بواسطة قطع كلسية تتخللها فتحات دائرية للتهوية. أما عن تاريخ هذه الحامّة، فقد سمحت الحفريات الأثرية لأول مرة بضبط كرونولوجيتها وتصحيحها، بعدما ردّدت الدراسات السابقة فرضيات إنشائها خلال الحقبة القديمة أو المرحلة النورماندية، مستبعدة تشييدها إبان المرحلة الإسلامية التي توسّطتها، علمًا بأن جل ما اكتشف بها من آثار قديمة لا يتعدى قطعًا خزفية وأدوات حجرية تعود إلى مرحلتي ما قبل التاريخ وما قبل التاريخ، تشهد على تردد الإنسان على هذا المنبع دون إقدامه، سواء في تلك المرحلة أو خلال المرحلة البيزنطية المتأخرة القريبة من المرحلة الإسلامية، على تشييد بناية ما لاستغلال مياه الحامّة. فهل يكون النورمانديون هم من أقدموا على تشييدها؟ لم تعد فرضية التأسيس النورماندي قائمة هي الأخرى، بعدما كشفت الاستبارات الأثرية والدراسة التقنية الدقيقة للقطع الخزفية المستكشفة والتأريخ بالكربون المشع (^{14}C) عن سبق المسلمين إلى تهيئة الحامّة عبر مرحلتين، اتسمت الأولى منها خلال النصف الأول من القرن Xم بتردد المسلمين على الموقع واستغلالهم لمياهه عبر شبكة أنابيب خزفية ونظام لتجميع المياه، في غياب أي بنية خاصة بالاستحمام. وتزامن هذه المرحلة مع أوج الإمارة الفاطمية في صقلية [909-948م] واهتمامها المتزايد بالمنطقة لاستغلال خشبها في صناعة السفن الحربية والتجارية. أما المرحلة الثانية [من النصف الثاني من القرن Xم إلى مطلع القرن XIم] فقد شهدت تحديدًا دقيقًا للفضاء المخصص للاستحمام، وتحسينًا لنظام التزود بالماء، وربما تشييدًا لحامّة مغطاة ومهيكلت معماريًا، زيادة على إعداد الفضاء المجاور لها من خلال تسويته وتشييد بناء كبير موجه صوب الجنوب على شاكلة بعض مساجد الأندلس التي تعود إلى المرحلة الممتدة ما بين القرنين IX وXIم. وهو ما دفع بالفريق العلمي بعد مقابلة هذه المعطيات بالإشارات النصية الوسيطة إلى ترجيح وجود

الأثرية بها عن قطع خزفية ومعدينية استخدمت حيثئذ في الأنشطة الفلاحية المهيمنة على بنية الاقتصاد الجهوي.

وفي الختام تجب الإشارة إلى تحرير الفريق العلمي فصول هذا الكتاب باللغتين الإيطالية والفرنسية تبعاً للقدرات اللغوية لكل باحث من الباحثين الأربعة والعشرين، وتذليلهم الكتاب بملحق غني بالصور الفوتوغرافية والرفوعات الأثرية والتصاميم الدقيقة للحامّة والكتابة العربية المنقوشة على واجهتها، فقدموا بذلك إضافة نوعية وقيّمة للتاريخ الإسلامي الصقلي.

سمير أيت أومغار
أستاذ باحث، مراكش